الفصل الأول

صلة الإنسان بالله ورسالته فى هذا الوجود

تكوين الفرد أصل لتكوين المجتمع:

إذا كان المجتمع ليس فى واقعه إلا الأفراد الذين منهم يتكون وبهم ينبنى، فإنه من غير الممكن أن يسعد المجتمع مع شقاء الأفراد، أو يشقى مع سعادتهم، إذن البحث عما يجب أن يكون الفرد ويكمله هو البحث عما يكون المجتمع ويقومه ويسعده.

وإن الإسلام يمتلك مفهوما واضحا ومحددا لعلاقة الإنسان بالوجود الكلى، فنظرة الإسلام حول الألوهية تقوم على قاعدة العبودية لله، التى ترتكز بدورها على الإيمان المطلق بالله الذى يتمثل فى التزام الفرد سلوكا بأوامر الله ونواهيه. فالإيمان بوحدانية الله هو الذى يحقق مفهوم العبودية عند الفرد المسلم.

﴿ **وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** ﴾ [النحل: ٥١ ، ٥٢].

ولا يعبد المسلم إلا الله ولا يتقدم بشعائره التعبدية لأحد غير الله ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣].

كما أن العبودية لا تكتمل فى مفهومها إلا بإيمان الفرد بإدراك أن مصدر التلقى فى كيفية هذه العبودية يأتى عن طريق رسول الله ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧].

والتصور الإسلامى تجاه الوجود يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله حيث اتجهت إرادة الله إلى خلقه، فكان بموجب النواميس والقوانين التى وضعها الله بتناسق تتحرك بها أجزاؤه فيما بينها كما تتناسق بها حركته الكلية، كما تشير الآية ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢].

وينتج عن هذا التصور إدراك أن وراء هذا الوجود مشيئة تديره وقدرا يحركه وقدرة تنسق ما بين أجزائه فتنظم حركاتها جميعا فلا تصطدم ولا تختل ولا تتنافر ولا تتعارض ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة إلى ما شاء الله. فالوجود خاضع ومستسلم لهذه المشيئة التى تديره والقدرة التى تحركه، وتتأكد هذه المعانى من الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

صلة الإنسان بالكون:

والإنسان جزء من هذا الوجود، وهو مكون فى أصل مادته من طين هذا الوجود، ولكنه يختلف عن مادة الطين بامتيازه بخصائص ومميزات ربانية جعلت منه إنسانا مع خضوعه من ناحية كيانه الجسمانى للقانون الطبيعى الذى سنه الله - الآيات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

نظام اجتماعى فى الكون:

والله الذى أوجد الكون بنواميسه وقوانين حركته وأوجد الإنسان كجزء من هذا الكون، أوجد شريعة ونظاما اجتماعيا لهذا الإنسان لتنظيم حياته الإدارية تنظيما يتناسق مع حياته فوق هذه الأرض، فالشريعة وما تحتويه من نظم وأحكام ما هى إلا جزء من القانون الإلهى العام الذى يحكم فطرة الإنسان والوجود العام وينسقها كلها فى إطار العبودية الواحدة لله.

ولاشك أن أى تصور يمتلكه الفرد حول الوجود يؤثر على مفهومه حول العلائق الاجتماعية والاقتصادية فى الكون. فالمجتمع الملحد الذى ينكر وجود الله أصلا يرجع حركة الكون إلى المادة أو الطبيعة ويرجع المؤثر الأساسى فى حياة الإنسان إلى العوامل الاقتصادية وأدوات وعناصر الإنتاج. كما أن النظام السياسى أيضا يتأثر بذلك فيجعل العبودية فيه للحزب على أساس أن القيادة الجماعية حقيقة واقعة ويجب الالتزام بها،

ويترتب على هذا التصور بالطبع إهدار لخصائص الإنسان -كما فى النظام الشيوعى- وحرمان لحرية الفرد فى المجتمع.

وذلك باعتبار أن الحاجات الأساسية للإنسان هى فقط مطالب الجسد من طعام وملبس ومسكن وجنس، وبالتالى فالمجتمع الملحد يحرم الإنسان من حاجاته الروحية المتمثلة فى العقيدة بالله وحرية اختيارها وحرية التعبير عنها وكذلك حرية التعبير عن فرديته التى تتجلى فى الملكية الفردية وفى اختيار نوع العمل والتخصص الذى يريده.

وكذلك حينما يختلط الإلحاد بالعبودية والتقديس للمال والأشياء أو الأفراد كما فى النظام الرأسمالى الذى يعطى الفرد حريته المطلقة فيمتلك ما يشاء ويعمل ما يشاء بقدر مجهوده بلا قيود فتبرز الأنانية والطبقية مما يؤثر على أنظمته الاجتماعية والسياسية التى تظل تحرس الملكية الفردية والحرية الفردية للطبقات الثرية وتهمل مسئوليتها نحو أفراد المجتمع الضعفاء فيبقوا عبيدا أذلاء للطبقات الغنية.

عبادة الله وعمارة الأرض:

أما الإسلام فهو يحدد الغاية من الوجود ويوجد التوازن بين الفرد والوجود والمجتمع باعتبار أن الفرد هو جزء من الكون. ونلاحظ فى كثير من الآيات القرآنية هذا الربط بين الفرد والكون ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. ويوضح الأستاذ علال الفاسى هذا الترابط بقوله «لقد جعل سبحانه العبادة حكمة لإيجاد الإنسان، ولكن العبادة لا تعنى الانقطاع عن العمل والتجرد عن الدنيا مما يتنافى مع رسالته فى تعمير الأرض ونشر الحكم الإلهى عليها طبقا لنواميس الله ومقاصده الشرعية. والإنسان يُكلف قبل كل شىء بأن يتعلم هذه النواميس والأحكام»[1].

فالإسلام دين عمل وجهاد لا يعرف الرهبانية والعزوف عن الدنيا ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾ [الحديد: ٢٧]. يقول محمود شلتوت «والحق أن عبادة الله التى خلق لأجلها الجن والإنس لم يكن

(١) مقاصد الشريعة ومكارمها - علال الفاسى.

سبيلها فى هذه الحياة التبتل والامتناع عن الدنيا، وإنما سبيلها تحقيق إرادة الله فى كونه عن طريق العمل فى عمارة هذا الكون وإظهار أسرار الله الدالة على عظمته ووحدانيته واستحقاقه وحده للعبادة والتقديس».

وهكذا يجب أن يفهم الناس أن الله لا يرضى من عباده أن يزهدوا فى الدنيا هذا الزهد العام المطلق وأن ينقطعوا فى الصوامع والبيع والمساجد لعبادته ومناجاته فهو يناجَى فى الحقل ويناجَى فى المتجر ويناجَى فى المجتمع وكل تلك مناجاة يسمعها الله ويتقرب بها العبد لله[1].

والإسلام يجعل العلاقة بين الإنسان والله تقوم على فكرة الأزلية. فمنذ أراد الله خلق الكون نادى فى الأزل فى أرواح البشرية كلها وعرض عليها أمانة التكليف والعبودية فاعترفت له بألوهيته ووجوب عبادته. ويحكى القرآن فى الآية الكريمة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ونتيجة لهذا الاعتراف منح الله الإنسان الأرض لتكون مقرا لخلافته عليها، كما أوجد فيه القدرة على عمارتها وسخر له الأرض والبحر وما فيهما من رزق ليكون الإنسان شاكرا وذاكرا لله.

- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٢].

- ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

---

(١) توجيهات الإسلام - محمود شلتوت ص١٢٠.

- ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وإذا كان الانقطاع عن الدنيا والإعراض عنها بالتبتل والاكتفاء من متعها وخيرها بما يقيم الأود الشخصى، مما يأباه الإسلام وينكره أشد الإنكار، فإن الإسلام أشد إباء وإنكارا لافتراض آخر فى علاقة الإنسان بالحياة والمجتمع. وهذا الافتراض المقابل للانقطاع والتبتل هو افتراض التكالب على الجمع والادخار فى محيط الدائرة الشخصية الذى يركز فيه الإنسان قواه العقلية والجسمية فى خدمة وجوده المادى الخاص ويعمل على بسط سلطانه على من سواه، ويسلك إلى تلك الغاية كل السبل التى يراها محققة لها غير مكترث بشىء من جوانب الفضيلة الروحية ولا الشكر الإلهى على ما هيئ له من نعم، فلا عطف ولا رحمة ولا تعاون، وإنما هو طغيان وتفاخر وتكاثر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

الاعتدال والتوسط سمة إسلامية:

إن النتيجة الحتمية لهذا التصور العام هى أن الإسلام يمتلك تصورا مستقلا للوجود والحياة ذا خصائص متميزة ينبثق عنه منهج ذاتى مستقل للحياة ونظمها. فالمؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته إلا من شريعة الله لتنظيم الحياة البشرية سواء ما يتعلق منها بأصول الاعتقاد أو أصول الحكم والإدارة أو أصول الأخلاق والسلوك. فمن نتائج هذا التصور فإن الفرد المسلم لا يحتقر المادة فى أصلها النظرى على اعتبار أن الكون يتألف منها وهو يعيش فى هذا الكون الذى يتأثر به ويؤثر فيه.

فالإنتاج المادى والعمل من مقومات خلافة الإنسان عن الله فى الأرض، ولكنه أى الإنتاج -لا يعتبر هو القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته وعلاقاته مع بنى الإنسان.

فإذا كان الإسلام يحارب، فى علاقة الإنسان بالحياة الروحية البحتة كما حارب المادية البحتة، ورأى أن الروحية البحتة سبيل التعطل وإهمال لقوى العمل المودعة فى الإنسان، ولقوى الإنتاج المودعة فى الكون، وأن المادية البحتة سبيل لقتل المعانى الفاضلة وتدفع بالإنسان إلى جوانب الطغيان المفسد للحياة - كقصة صاحب الجنتين الذى افتخر بها على صاحبه وقال له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤ - ٣٦]. وكانت عاقبته أن ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]. كان من ضرورة ذلك أن يدعو إلى المزاوجة بين حظوظ الجسم المعتدلة وحظوظ الروح المعتدلة، ويبنى منهجه على الواقع الطبيعى للإنسان. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]. فالله يربط التمتع بخيرات الدنيا بالتقوى والإحسان وعمل الصالحات، وفى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

ولقد اتخذ الإسلام فى إباحة التمتع بزينة الحياة -جريا على مبدأ الاعتدال الذى بنيت عليه سائر أحكامه، اتخذ تحفظين شدد فى مراعاتهما وهما: حسن النية وهو يكون بقصد شكر الله على نعمه لا بقصد التفاخر والخيلاء، ثم الوقوف فيها عند حد الاعتدال حتى لا يقع فى الإسراف. ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

تهذيب الروح بالتفكير والذكر:

إن الإسلام يرى أن الروح المهذبة أساس للمادية المهذبة وهنا تكتمل سعادة الإنسان. ومن أولى وسائل التهذيب المادى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا

إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦ - ١١].

وبهذا التفكير تعرف الآثار الدالة على جلالة مصدرها وعلى كماله فى العلم والقدرة وعلى عموم رحمته وسلطانه فتخضع النفس لإرادته وتنشط فى طاعته وتتوخى فى حياتها ما يرضيه ويقرب إليه. والتفكير فى مخلوقات الله المصحوب بالتذكر هو الذى يطبع فى النفس صور الجلال الربانى الذى يملأ النفس رهبة، وصور الجمال الذى يملأ النفس رغبة. والقرآن حينما يضع التفكير أول الوسائل للتهذيب الروحى لا يريد هذا التفكير الجاف الذى يأخذ العقل به آثار الكون المادية ثم يطغى بها على الذين لم تهيئ لهم ظروف الحياة ما هيأت له.

هذا تفكير جامد ومرتبط بالمادة والأرض. إنما يدعو القرآن إلى التفكير الذى يصل بالإنسان إلى معرفة الآثار المستندة إلى مصدرها الذى أنعم بها وعندئذ يشكر ولا يكفر. وأن هؤلاء الذين قصروا فى التفكير على بعض نتائجه فاستغلوا نعم الله لفائدتهم الشخصية المادية وللإثراء والتكالب على الحياة وأغفلوا النظر إلى الهدف الأكبر، هم فى نظر القرآن كالأنعام بل أضل سبيلا.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن المسلم الذى توكل إليه مسئولية عامة فى الدولة المسلمة، والملتزم فكريا وسلوكيا بتعاليم الإسلام سيكون الحارس الأمين لمقدرات البلاد والعباد يطبق العدالة وينشر الحق ويحفظ الآخرين ويحافظ على حقوق الدولة.

●●●